رؤية إسلامية

لا شك أننا أمة ذات تراث فكري وحضاري عريق .

والمتأمل في تراثنا الفكري بوجه خاص يلاحظ ظاهرة حقيقية جديرة بالدراسة : وهي أن تراثنا الفكري يتميز بالأصالة والعمق والثراء والتفتح عندما تكون ينابيعه وروافده مستمدة من القرآن والسنة ؛ بينما تقل أصالته ، وتبدو ضحالته ، وتظهر عليه أعراض الجمود والانغلاق ، عندما يجنح الى الابتعاد عن هذين المصدرين الخالدين ، ويتجه الى تقليد ثقافات وفلسفات « علمانية » ، بالغت في تجميد القعل البشري ، بل تأليه هذا العقل ، والادعاء بأنه يستطيع أن يبحث كل شيء ، ويعرف كل شيء ، ويحل كل مشكلة . وأن الانسان ـ لذلك ـ يكفيه عقله ؛ فلا يحتاج قط إلى هدي الله : خالقه ورازقه وهاديه .



العقيدة والعقل

بقلم : د. أحمد عبد الحميد غراب

ومن المعروف أن هذا الاتجاه « العلماني » له جذوره العميقة في الفلسفة اليونانية التي تبالغ في تمجيد العقل البشري ، والتنكر للوحي الالهي .

ثم ترعرع هذا الاتجاه في أوروبا في عصر النهضة ؛ وذلك لأسباب تاريخية ودينية ترجع إلى اضطهاد رجال الكنيسة للعلم والعلماء ، ووقوفهم ضد حرية الفكر والضمير ، وضد الصلة المباشرة بين الانسان وخالقه ؛ وذلك حين انتحلوا لأنفسهم دور الوساطة بين العبد وربه ، وأنه عن طريقهم وحدهم يكون الغفران أو العقاب الإلهي .

ولكن هذا الاتجاه غريب كل الغربة عن الإسلام .

فليس في الإسلام اضطهاد للعلم والعلماء .

وليس في الإسلام وأدٌ لحرية الفكر أو حرية الإنسان .

وليس في الإسلام وساطة ولا كهانة .

والقرآن الكريم حافل بالآيات التي تكرم العقل ، وتحث الإنسان على التفكير في كل المجالات الممكنة للعقل البشري في عالم الشهادة ؛ أي في كل الظواهر الكونية والإنسانية ، وذلك بدراستها والاستفادة من هذه الدراسة فيما يعود بالخير على الإنسانية جمعاء ، ويجعل الحياة على هذه الأرض حياة طيبة للناس جميعا .

والقرآن كذلك حافل بالآيات التي تكرم العلم والعلماء .

ولكن العلم في الإسلام هو العلم النافع للناس ، المرتبط بالإيمان بالله ، والمؤدي إلى خشيته وتقواه :

«**إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَاءُ**» (سورة فاطر 35 – 28)

ولذلك لا يُستعمل العلم في الإسلام للتخريب والتعذيب وإهلاك الحرث والنسل والإفساد في الأرض ؛ كما يستعمل اليوم في الغرب الرأسمالي ، والشرق الشيوعي .

وإنما يستعمل العلم في الإسلام لتحقيق الخير للناس في الدنيا والآخرة ؛ أي لتحقيق التقدم الشامل المتوازن ، الذي لا يجعل الإنتاج الكمي للمواد الاستهلاكية أكبر همه ، بل يشبع حاجات الإنسان المادية والروحية بصورة متكاملة ، بلا إسراف ولا رهبانية؛ ويسمو به ـ في الوقت نفسه ـ عن الإخلاد إلى الأرض ؛ فيهيئه للمكانة الربانية التي كرمه الله بها حين نفخ فيه من روحه ، وجعله في الأرض خليفة .

ويحفل القرآن كذلك بالآيات التي تقرر مسؤولية الإنسان عن أعماله ؛ تلك المسؤولية التي تقوم على مقدرته على التمييز بين الخير والشر ، وحرية اختياره للهدى أو الضلال ، وأنه على نفسه بصيرة ، وأنه لا إكراه في الدين .

وكذلك يؤكد القرآن الكريم الصلة المباشرة بين الإنسان وخالقه ، وأن الإنسان لتوثيق هذه الصلة لا يحتاج إلى الوسطاء ، حتى من الرسل والأنبياء . يقول الله تعالى :

« **وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ** » (البقرة : 186) .

★ ★ ★

وبالرغم من هذا كله فقد تجمعت في تراثنا الفكري ؛ ولا سيما ذلك التراث الخاص بدراسة العقيدة ؛ بعض الرواسب التي انتقلت إليه عن طريق التقليد لتلك الثقافات والفلسفات ذات الطابع المادي الضيق المحصور في حدود العاجلة ، والغريب كل الغربة عن توازن الإسلام ، وسعته للمادة والروح ، وجمعه بين خيري الدنيا والآخرة .

هذه الرواسب ينبغي أن ننبه إليها ، ونسلك مسلك الحكمة في التخلص منها .

وفيما يلي نشير إلى بعضها على سبيل المثال :

في دراسة العقيدة الإسلامية نواجه في كثير من المؤلفات الكلامية والفلسفية القديمة ، وبعض المؤلفات الحديثة ـ نواجه تلك التفرقة المصطنعة بين العقل والنقل ، أو بين العقل والوحي ، والزعم بأن الاهتمام في دراسة العقيدة الإسلامية يجب أن يوجه أولا للعقل والأدلة العقلية التي تثبت وجود الله ووحدانيته وسائر صفاته تعالى وأسمائه الحسنى . وذلك ـ فيما يزعم أصحاب هذا الاتجاه ـ لسببين :

الأول : أن الوحي قضية إيمان ونقل ، لا قضية فهم وعقل .

والثاني : أن القرآن الكريم وحي من الله تعالى ، وهو دليل للمؤمنين به فقط ؛ فلا يصلح أن نستدل به خارج دائرة المؤمنين ؛ أي لا يصلح أن نخاطب به الكفار والملاحدة ؛ لأنهم ينكرونه ولا يؤمنون بأنه وحي من عند الله . فينبغي لذلك أن نخاطبهم بالعقل وحده ، ونحاول أن نقنعهم بالأدلة العقلية والفلسفية وحدها .

ويترتب على هذا الموقف أننا من أجل أن نبين عقيدتنا للناس ونقنعهم بصحتها ؛ ينبغي أن نبدأ أولا بدراسة الفلسفة ؛ وبخاصة الفلسفة اليونانية القديمة ، والفلسفة الأوروبية الحديثة ؛ ونستشهد بوجه خاص بأولئك الفلاسفة اليونانيين والأوروبيين «المؤمنين» بالله !! (والواقع أن تصور الله في الفلسفة اليونانية بوجه عام وفلسفة أفلاطون وأرسطو بوجه خاص تصوُّرٌ خاطىء بل وثني من أساسه ؛ ولا يحتوي على فكرة الوحدانية أو الخلق من العدم كصفتين من صفات الله تعالى . وتصور الله في الفلسفة الأوروبية المسيحية مختلط بعقيدة التثليث ؛ فالله عندهم يعني غالبا الإله الأب ـ أحد الأقانيم الثلاثة ـ تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا) وكل هذا لنثبت بأدلتهم الفلسفية صحة الإيمان بوجود الله الواحد الأحد ، وسائر صفاته تعالى وأسمائه الحسنى ، أي نثبت بالكفر صحة الإيمان ، وبالشرك صحة التوحيد ؛ وبالعقل الإنساني المغرور ، المخلد إلى الأرض ، والمتمرد على وحي السماء ـ صحة هذا الوحي وأنه حق من عند الله !!



ينبغي أن نؤكد أن معظم المفكرين المسلمين القدامى الذين اتخذوا هذا الموقف « المتفلسف » قد اتخذوه بحسن نية ؛ وذلك لأنهم اتخذوه في عصر احتكاك المسلمين بالشعوب المجاورة ذات الحضارات القديمة ؛ كالهند والفرس واليونان . وكان هدف هؤلاء المفكرين المسلمين هو الدفاع عن الإسلام بسلاح الفلسفة في عصر كانت فيه الفلسفة اليونانية بوجه خاص تشبه السحر أو الكهانة في تأثيرها على العقول المفتونة بحضارة اليونان . كما أن لتقدم العلوم والتكنولوجيا في عصرنا الحاضر تأثيرا يشبه السحر أو الكهانة على العقول المفتونة بحضارة الغرب !

ومع هذا فإن حسن النية لم يمنع أولئك المفكرين المسلمين ـ ولا سيما المعتزلة ـ من التأثر بعقلية العدو الذي كانوا يحاربونه بأسلحة من صنعه هو .. لا من صنعهم .. أي بأسلحة

مستوردة وليست من الإنتاج الذاتي لتربتهم الحضارية الإسلامية .

ومن المعروف أن المعتزلة قد تأثروا تأثيرا واضحا بالفلسفة اليونانية ، والمنطق اليوناني ، وطريقة الجدل اليوناني .

بل إن مفكرا كبيرا من أهل السنة ، ومفسرا مشهورا من مفسري القرآن الكريم وهو الفخر الرازي ، كان في **بعض** مراحل حياته الفكرية لا يكتفي بالتفرقة بين العقل والنقل ؛ بل يذهب إلى حد القول بأن العقل أكثر يقينا من النقل ، وأن « الدلائل النقلية ظنية ، والعقلية قطعية » (**معالم أصول الدين** ص 24) .

وقد أدى هذا الموقف الذي يقوم على الثنائية بين الوحي والعقل إلى ظهور ذلك التيار السائد فيما يسمى « بالفلسفة الإسلامية » ، وهو التيار الذي يحاول التوفيق أو « التلفيق » بين الوحي والعقل ، أو بين الدين والفلسفة ، أو بين الشريعة والحكمة !

وقد انساق في هذا التيار معظم من يسمون « فلاسفة الإسلام » : منذ الكندي في القرن الثالث الهجري حتى يبلغ التيار قمته عند ابن رشد في القرن السادس (في كتابه : **فصل المقال وتقرير ما بين الشريعة والحكمة من الاتصال**) .

وأنا لا أتهم هؤلاء الفلاسفة بالكفر كما فعل الإمام الغزالي في كتابه **تهافت الفلاسفة** (1) ، بل افترض فيهم حسن النية ، وأقدر جهودهم الفكرية .

ولكن هذه الجهود لا تعدو أن تكون « اجتهادات » تخطىء وتصيب .

★ ★ ★

إن فصل العقل عن الدين هو أمر قد يصح بالنسبة لدين كالمسيحية ؛ ولكنه لا يصح مطلقا بالنسبة للإسلام .

ففي القرآن الكريم آيات لا تكاد تحصى عددا تطالب الناس جميعا (ولا سيما الكافرين منهم) بتنحية كل الحواجز التي تحول بين الإنسان وبين اكتشاف الحق والعمل به ، وبخاصة فيما يتصل بالإيمان بالله الواحد الأحد .

ومن أهم هذه الحواجز الإكراه في الدين ، والتقليد الأعمى للآباء والأجداد واتباع الهوى والظن ، واتخاذ الوسطاء بين الله والناس .

يقول الله تعالى لرسوله ﷺ :

« **أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ** » (يونس 10: 99) .

ويقول تعالى :

« **لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ** » (البقرة 2 : 256) .

وينعى القرآن على المشركين تقليدهم الأعمى لآبائهم وأجدادهم في العقيدة والسلوك ، رغم جهل هؤلاء وضلالهم :

« **وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلاَ يَهْتَدُونَ** » (المائدة 5 : 104) .

كما ينبغي عليهم أن لا يستجيبوا لدعوة الحق لأنهم يتبعون أهواءهم :

« **فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ** » (القصص 68 : 50) .

ويتبعون الظن :

« **وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا** » (يونس 10 : 36) :

وكذلك ينعى على اليهود والنصارى أنهم :

« **اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ** » (التوبة 9 : 31) .

---

(1) لم يكفرهم بسبب موقفهم مباشرة ، بل بسبب ما ترتب عليه من نتائج تمس العقيدة وبخاصة فيما يتصل بقدم العالم ، وعلم الله ، وبعث الأجساد .

وبعد استبعاد هذه الحواجز يدعو القرآن الناس جميعا الى التفكير في خلق السموات والأرض ، وفي خلق الإنسان ؛ أي في جميع الظواهر الكونية والإنسانية للاستدلال بدراستها واكتشاف ما فيها من القوانين والعلاقات ووحدة النظام والتدبير الحكيم - على وجود خالق واحد قادر مريد ، عليم حكيم ، رؤوف رحيم ، .. « **لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى** » .

فأي منهج أفضل من هذا المنهج علميّةً وموضوعية ، واتساعا على الكون والإنسان ، وانفتاحا على الإنسانية كلها في مشارق الأرض ومغاربها .

ولا يقتصر التفكير على الطبيعة والإنسان ؛ بل يمتد الى آيات القرآن .

فهذا الكتاب الكريم قد نزل للناس لا لمجرد أن يحفظوه بدون فهم ، أو يتغنوا به بدون عمل - كما تفعل نحن المسلمين اليوم - وإنما نزل ليتدبروا آياته ويعملوا بها :

«**كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ**» (ص 38 - 29)

ولكن القرآن الكريم لا يخاطب عقل الإنسان وحده ؛ وإنما يخاطب كيان الإنسان كله :

يخاطب عقله وحسه وخياله ووجدانه وبصيرته .

أي يخاطب فطرته المتكاملة :

« **فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ** » (الروم 30 : 30) .

ولعل هذا بعض ما يجعل للقرآن تأثيرا على النفس الإنسانية لا يعادله تأثير أي كتاب آخر في تاريخ البشرية على الإطلاق .

ومن المعروف أن كثيرا من المهتدين إلى الإسلام - حتى في أوروبا - قد توسعوا في دراسة الفلسفة ، ولكن غالبا لم يهتدوا إلى الإسلام عن طريقها ، وإنما عن طريق الكتاب العزيز ، أو السنة النبوية الشريفة ، التي هي تفسير وتطبيق حيٌّ للقرآن الكريم .

فكيف لا نخاطب بهذا القرآن جميع الناس وقد نزل لجميع الناس ؟!

وكيف لا نخاطب به إلا المؤمنين وقد خاطب الله به (بطرق مباشرة وغير مباشرة) المؤمنين والمنافقين واليهود والنصارى والصابئين والمجوس والذين أشركوا ؟!

كيف لا نخاطب به الإنسانية كلها وقد أرسل به الرسول ﷺ رحمة للعالمين ؟!

وكيف لا نبينه وقد أُمرنا بتبيينه للناس جميعا . وقد لعن الله كل من كتم هداه ، وحال بين نوره وبين الناس :

« **إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللاَّعِنُونَ . إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا** » (البقرة 2 : 159 - 160) .

وبعد هذا التبيين فليؤمن من يؤمن وليكفر من يكفر ؛ لأنه :

« **لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ** » .

أحمد عبد الحميد غراب